

لو كزيبو (*)

دون كيخوته وسانشو بانثا، كل يوم

ت: علي إبراهيم أشقر

احتفل العالم عام ٢٠٠٥ بالذكرى المئوية الرابعة لصدور الجزء الأول من الدون كيخوته لشربانتس. وقد أراد معهد ثربانتس أن يساهم بالمشاركة مع غالكيلاغوتنبرغ وحلقة القراء، بالاحتفال بهذه المناسبة بنشر كتاب: دون كيخوته حول العالم.

Don Quijote alrededor del mundo

وهو مؤلف يضم مجموعة مقالات بأقلام نخبة من الكتاب من مختلف الأنحاء، يقيمون فيها، كل من زاويته، الأهمية العالمية لأول رواية في العصر الحديث. ومن هذا الكتاب أخذ هذا المقال القيم.

دون كيخوته وسانشو بانثا كل يوم

من المخاطرة دائماً الزعم أننا نقرأ كتاباً كلاسيكياً وكأنما كتبه منذ يومين أحد المؤلفين المعاصرين. ومع ذلك، لا تفوتني ذكريات قراءتي الأولى للكيخوته: إنها تبدو لي واضحة جداً وكأنما أطبقت لتوي المؤلف العجيب المطبوع عام ١٨٤٥ بترجمة لويس فيرادور Verador والمزدان برسوم طوني جوهانو Tony Johannot، وتحمل صفحة الغلاف الداخلية الأحرف الأولى من اسم جد أبي السير أوجين Sir Eugène رئيس القضاة في المحكمة العليا لجزيرة موريشيوس.

(*) قاصّ وروائيّ فرنسيّ وُلد في نيس عام ١٩٤٠، وانتقل وهو في الثامنة من عمره إلى نيجيريا حيث كان والده يعمل طبيباً. بدأ الكتابة بعد موجة الوجودية والرواية الحديثة، واهتمّ في أدبه بالطبقات المسحوقة من المهمّشين والمهاجرين. من قصصه: الحمى والطوفان، ومن رواياته: الصحراء. نال جائزة نوبل للأدب.

أتذكر أنّي تخيلت اللذة التي ربّما كان وجدها عند قراءته هذا الكتاب، الذي اشتراه بلا ريب في أثناء أحد أسفاره إلى فرنسا. ماذا عساه وجد فيه؟ أيكون تعرّف فيه إلى علامات مشتركة بين قشتالة ثريانتس وجزيرة موريشيوس أواخر القرن ١٩؟ ربما وجد فيه الانتشار الشعبي لنماذج ثابتة: صعلكة ناس الشوارع، وملامح العظمة عند الحكماء العجائز، أو عند أولئك النبلاء ذوي الأسماء الطنانة والمفلسين والمستعدين دائماً لنظم بيتين من الشعر تمجيداً لقضية خاسرة، ورشق إنكلترا عدوهم القديم بالسهام. أو نكون مفرطين في الجرأة لو تخيلنا الدون كيخوته في المناطق المدارية؟ والفكرة ليست محالة تماماً. فقد أشار لويس فيرادور في مقدمته إلى أن موضة قصص الفروسية كانت تنتقل بالعدوى أيام ثريانتس، أمرٌ كان يشجّع عليه خارج إسبانيا إثر الغزو، ظهور حشد من الحمقى الراغبين في قتال العمالقة والأمازونات بأمل أن يحصلوا كما حصل سانشو، على حكم جزيرة ما تضمن لهم مستقبلهم؛ كانت جدّ معدية حتّى إنّ الإمبراطور كارلوس الخامس وجد نفسه مضطراً إلى إصدار قرار يحظر جلبها إلى المستعمرات الجديدة في أمريكا، أو تمكين أيّ هنديّ أو إسبانيّ من قراءة قصة واحدة من قصص الفروسية. وقد وجّه مجلس النواب في بلد الوليد عام ١٥٥٥ طلباً إلى الملكة خوانا بغرض أن يشمل هذا القرار إسبانيا كلها.

إنّنا لا نعرف ماذا كان قرار الملكة، لكن، ما إن انقضى نصف عقد^(١) على ذلك حتّى جعل ظهور الكتاب الأوّل من مغامرات الدون كيخوته عبثاً ذلك الحظر لمّا بين «مهزلة سائر الكتب الأخرى»، حسب كلمات مونتيكيو. (رسائل فارسية، ٧٨)

أنا أعود إلى الدون كيخوته كما أعود إلى كتاب من كتب يومنا هذا، أعود إلى كتاب الأيام كلها. وقليل من الكتب له هذه القدرة على أن يفتح بهذه الطريقة، في أيّ مكان وعصر، كما فتحه جدّ أبي في مكتبته في موكا الماطرة والواقعة في الطرف الأقصى من الأرض، وجلب له عند قراءته لذّة الاكتشاف، وفرح البسمة وحرارة الحقيقة. وما يزال هذا الأمر أكثر صِحّة في عصرنا، في بداية القرن الواحد والعشرين الذي يشبه شبهأ كبيراً في مظاهر كثيرة منه عصر ثريانتس سواء في السياسة واللغة

(١) Lustro هكذا هي في الأصل، أي مدة خمس سنوات وكان يجب أن تكون نصف قرن، لأن الجزء الأوّل من الكيخوته ظهر عام ١٦٠٥ المترجم.

والفلسفة.. هذا إذا دققنا النظر، وعلينا أن ننظر إلى كل شيء. وكانت أزمنة دون كيخوته أزمنة حزينة بسبب الحروب، وكان ينعكس فيها الظلم الاجتماعي، والشك بما يأتي به الغد في كل مكان. فقد كان بدأ غزو العالم، ومع الغزو كانت المجازر والأوبئة واستعباد الشعوب الأدنى قدرة على الدفاع عن نفسها. ومع حرب الاسترداد La Reconquista ^(١) عزز الغرب تفوقه التكتيكي على الإسلام؛ لكن هذا الأمر كان أيضاً نهاية اللقاء والتبادل. فقد انغلقت إسبانيا بعد عام ١٤٩٢ على نفسها، ورفضت الآخر واخترعت شباطين جديدة. ولم يبق اليوم من تلك الذكرى الأليمة سوى الغياب: فلأول مرة في التاريخ كله التقت الأديان التوحيدية الكبرى الثلاثة مع بعضها، وحاولت أن تقبل بعضها بعضاً. وهذا أول ما يدهشني حينما أفتح كتاب الدون كيخوته اليوم. الدون كيخوته الفارس ذو الوجه الكئيب الذي يجوب مع مرافقه سانشو بانثا أرضاً حزينة مغبرة ومهجورة. فقد صار بعيداً عنهما انتصار ألفونسو X ورسوخ العصر الذهبي الإسباني الجديد. ولو لم يكن دون كيخوته طويلاً جداً وناحلاً جداً، ولو لم يلبس كفزاعة طيور ويتكلم كالملهم، ولو لم يكن سانشو نقيضه يهز ردفه فوق حماره الجوعان والعطشان دائماً، لكان للأرض التي يطوفان فيها مظهراً مكرباً يذكرنا بوحشة أريافنا الحديثة، حتى يمكننا التفكير في إنكلترا التي أفقرها كرومويل ووصفها ستيفنسون في روايته المخطوف Kidnapped، أو حتى في خشبة مسرح لا معقول بعد الحرب يجتازها الجندي برْدَمو Bardamu في «سفر في آخر الليل»، للويس فردينان سيلين L. F. Céline.

ولم تكن مغامرات النبيل الألمعيّ الظريفة أول قَدْح في قصص الفروسية في الغرب، فقد كان رسم مثله قصاصو الأساطير أو بوكاشيو في قصصه لوحة مجسدة

(١) أو الردّ على الغزو. وهي جملة الأعمال الحربية التي قام بها الإسبان على مدى قرون لاسترداد الأندلس. وكانت انطلاقها من إمارة صغيرة أنشأها القائد بيلايو في جبال استرياس في الشمال، ثم نشأت إمارات أخرى توسّعت حتى صارت ممالك. لكن حرب (الاسترداد) الحقيقية أخذت طابعها الجدي والخطير منذ أواسط القرن ١١. وما إن انتصف القرن ١٣ حتى كانت تهاوت بسرعة كبيرة حواضر الأندلس الكبرى: فقد سقطت بلنسية في حزيران من عام ١٢٣٦ وقرطبة في عام ١٢٣٨ ومرسية في عام ١٢٤١ وإشبيلية البطلة في تشرين الثاني عام ١٢٤٧ بعد حصار بري وبحري دام خمسة عشر شهراً. ولم يبق في يد العرب غير مملكة غرناطة التي صارت تحت حماية قشتالة — المترجم.

للمجتمع. ولم يكن الدون كيخوته أول مُستكشف للواقع الحديث: فقد سبقه في مهمته بانورغو لرابليه، ورينار Renart^(١) في الأسطورة. لكن دون كيخوته هو بلا ريب أول نقیض للبطولة، ولم نكف عن أن تتماثل معه حتى يومنا هذا، لأنه يبدو لنا وحصل في آن واحد على أن نبعد عن ذواتنا ذاتها. فالثنائي الذي يشكله مع سانشو بانثا هو النموذج النموذجي، و(الموديل) الأمثل للإنسان الحديث في ازدواجيته: فهو بطل حتى اللا معقول، وجبان حتى الحماسة، وهو مشعوذ وكذوب ومحتال، وهو في آن واحد بريء وشاعر وقادر على احتضان أنبل المشاعر. فلنتفحص نقیض البطولة كلهم في الأدب الغربي بدءاً من تريستان تشاندي حتى مول فلا ندرز، ومن توم جونز حتى بيكويك، ومن كانديد حتى جوزيف ك، ومن أوليس حتى لوكي جيم، نجدهم كلهم أبناء لدون كيخوته وسانشوبانثا. هم ضعفاء متبجحون، ومشارون عاطفياً، ومتناقضون وضحايا تستهدفهم برودة المجتمع المهيمن؛ وهم دمی في السياسة والمؤامرات والغيرة، ومتمردون دائماً على جراحهم، لكنهم عاجزون عن علاجها. وهم دائماً مجانين في الحب، لكنهم غير راضين، ويبحثون بحثاً دائماً عن المال والشهرة، وبساسة عن طعام جيد. ولنصنع للدون كيخوته يصف نفسه ويعرض لنا بشكل ما مهنته الفعلية، أي مهنة الجندي ثرانتس، بطل حرب يجهلها معاصروه، وسجين لم يشأ أحد أن يدفع فكاك أسره، واقتصر في آخر حياته على موارد دنيا كيما يقبّل أسرته ذاتها: فهو كطالب «يعيش على الإحسان» وعليه أن يتحمل الجوع والبرد، أو كالجندي، لأنه يقول: «لا يوجد في الفقر ذاته أفقر منه». (الجزء I - فصل ٣٨).

أولست هذه الصورة صورة الإنسان العصري كما عرفه سارتر، إنسان يجب عليه أن يناضل ليحافظ على استقلاله وشرفه، بينما كل ما حوله يقدم له المثال السيء في الوقاحة الأكثر صفاقة، وفي الاختلاس وفساد العادات وهيمنة المال والخضوع الأخط لأقوياء العالم؟ وقد ملئ أدبنا الأوروبي منذ الدون كيخوته بهؤلاء الأبطال الفقراء، وبشبان أحياناً ومنتحرين دائماً، مثل وارتر لغوته، ولوسيان لوين لاستندال، وأوراستينيك لبلزك، وعليهم أن يكافحوا ليجدوا موضعاً لهم في مجتمع يقصّهم عنه.

(١) قصص بقلب شعري تعود إلى القرنين ١٢ و١٣، وأحداثها تجري على ألسنة الحيوانات وبطلها الثعلب Le Renard.

یقیناً أنهم اكتسبوا خلال قرون مجوناً يبعدهم عن بطلي ثريانتس المشردين، لكن ثقتهم بأنفسهم وبحسن طالعهم ولدا في طريق «قلعة هيناريس»^(١)، لأن واقعية ثريانتس هي ما سمحت لرومانسيته أن تبدو نتاجاً ذا مصداقية. فإذا كان دون كيخوته مثلاً لهذا النوع، بالحري، إن يكن ظلّ حياً بيننا، نحن الذين ولدنا في عصر جد بعيد عنه، فذلك لأننا ما نزال نشبهه في تجاوزاتنا كلها وجنوننا وضحالتنا.

لا ريب أننا قادرون على التعرف إلى أنفسنا في نزواته، وفي هذا التحدي الذي يُطلقه في وجه العقل والأعراف. لكن رفضه للنظام الاجتماعي هو على وجه خاص، ما يمس أعماقنا. دون كيخوته ابن الشرف^(٢) hijo de algo، ورجل الخير المتمرد على ابن الثري رجل الخيرات والأملاك. الابن الثاني يملك كل شيء: الاكتفاء والسلطة وتقدير معاصريه، وإطراء متزلفيه، بينما الابن الأول لا يملك غير شرفه؛ أي كبريائه. وإن اللوحة التي يرسمها ثريانتس لنفسه بملامح النبيل فيها حيوية السخرية والدقة: «يالْبؤس شريف الأصل الذي يتباهى بشرفه ويأكل ما لا يغني من جوع، وخلف باب مغلق، ويرائي بمسوك الأسنان الذي يخرج به إلى الشارع من غير أن يكون أكل شيئاً يضطره إلى تنظيفها!». (الجزء الثاني - الفصل ٤٣).

يقيناً هو يبدو فظاً حينما يتزمل بأسماله، وحينما يقنع الواقع ليموه على من ينظر إليه، لكنه يسمح بين فينة وأخرى، أن تفلت منه كلمة مرة معترفاً لتابعه الوفي: «وهكذا، إذا أخذنا ذلك بالاعتبار، أكاد أقول إنه يُثقل على روعي أن اتخذت من هذه الفروسية الجوّالة مهنة لي في عصر بغيض جداً كعصرنا هذا الذي نعيش فيه». (الجزء I - فصل ٣٨).

وهاكم شكوى أخرى يُطلقها دون كيخوته في نهاية مغامراته ولما أثقل التعب كاهليه، وأثقل أيضاً، كما نتخيل مبدعه إثر سنين طوال من المعارك والحبس وكذلك عمله كاتباً مكباً على كتابة كتابه الساهر وهو في تنغيص من الفقر: «أيها

(١) مسقط رأس ثريانتس — المترجم.

(٢) هي في الأصل كلمة واحدة مركبة تركيباً مزجياً hidalgo، أي، نبيل أو شريف. وقد فكّ التركيب ليطابق بين ابن الأولى والثانية. وتعني حرفياً ابن شيء ما. وابن الشيء في العربية كناية عن مُلازمه مثل ابن السبيل لملازم الأسفار... الخ. وما للإبهام وللتعظيم. و algo لها في الإسبانية معنى قريب من ذلك. والمقصود ذو الكرامة والشرف — المترجم.

السيد الحلاق، السيد الحلاق [...] كم هو أعمى من لا يرى من خلال نسيج الغريبال.. وإن ما يتعني هو أن أجعل العالم يدرك الخطأ الذي يقع فيه، بالألا يجدد في ذاته الزمن السعيد حيث كان يهيم نظام الفروسية الجوال [...] وإن معظم الفرسان الذين يمارسونها اليوم، يصرون فوقهم الدمقس والبروكار ونسج أخرى ثمينة يرتدونها، أكثر مما تصرون الدروع التي يتسلحون بها [...] لأن ما ينتصر اليوم هو الكسل على السعي، البطالة على العمل، والرذيلة على الفضيلة، والغرور على الشجاعة ونظرية ممارسة السلاح). (الجزء الثاني - الفصل الأول).

كان دون كيخوته وسانشو بانثا يهيمن على وجهيهما في أرض مضطربة، ومزروعة بالأفخاخ والخدع، لكن ما يبدو بكل وضوح هو أن تلك الأرض ذاتها كانت مجالاً يمكن أن تولد فيه الرواية. ولا ريب أنه هناك، في قشتالة الجافة بدأ مع ثريانتس هذا الفن، فنّ الواقع والساخر والهازي الذي زود هذا الجنس الهجين؛ أي الرواية، بمعناه الحقيقي. وهنا، لا النبالة ولا الفلسفة مناسبتان للمقام بشكل جيد جداً.

وفي ذلك الوقت، كان شكسبير، وهو معاصر بالمعنى الصحيح لثريانتس، فقد توفي في العام ذاته بفارق أيام معدودات فقط بينهما، يبدع في إنكلترا عالماً في حالة غليان حيث تفاصيل المخادع الملكية قد نقب فيها حتى طياتها الأكثر خفاء كيما تعرض بشكل أفضل الإنسانية التافهة للملوك الحاكمين بأمر إلهي وكأنما كان يحضر بذلك للثورة. فمسرحة ريتشارد الثالث تطرح مسألة شرعية ملك سيء، و(العاصفة) مسألة العبودية، و(هاملت) مسألة الجنون. ولو عاش في إسبانيا، ماذا كان سيكتب عن جنون خوانا التي كانت تنام مع ميت، أو عن نهاية فيليب الثالث المأسوية؟ لكن إسبانيا ما كانت تمتلك نبضاً درامياً. أما الرواية، هذا المسرح الجوال، فقد كانت أقرب إلى هذا الشعب المجيد الحالم والناقد والفردى بشكل لا فكاك منه. إن الأصالة الإسبانية التي تغذي بها ثريانتس تكمن في قدرة المرء على أن يضحك من نفسه، يضاف إلى ذلك حبّ للذات كبير. فلكل امرئ فيها الحق في أن يعزز استقلاله ويلاحق أمر شرفه. ألم يؤكد ألفونسو الثالث عشر بعد ثلاثة قرون من ذلك أنه كان يحكم في إسبانيا واحداً وعشرين مليون ملك؟

كانت مغامرات وتبجحات وسخريات وجلد بالعصي، وأكاذيب والأعيب من كل صنف: كل ذلك يبين لنا أننا في نهاية العصور الوسطى، لما كانت الجن

والشباطین ما تزال تطوف في الغابات، أو لما كان حصان بسيط من أحصنة دوامة الخيل ومزود بمسمار صغير، يمكن أن يقود دون کیخوته وسانشو بانثا عبر قبة الفلك. ومع ذلك، لما كان بطلانا يجوبان البلد من قرية إلى قرية، فإنهما كانا يمران بأعمال من السحر والرقى بشكل طبيعي وثقة تدهشنا أكثر مما تضحكنا. وكأنّ اليومي والعادي يحافظ دائماً في الواقع، على جزء غير مكتمل وتظلّ تختفي تحت درع الواقع الصلب، ثغرات من الظلّ وعدم اليقين. وهنا يجب علينا، من دون شك، أن نبحث عن سحر هذه الرواية، وعن طابعها الشبابي الذي لا يشترك في شيء مع أعمال رابليه الطويلة والثقيلة ولا مع تمرده على اللغة. وليس فيها أيضاً أثر من سخرية بوكاشيو الصفيقة، ولا من أخلاقية مرغريتا ده نابارا، النسوية. فدون کیخوته مضحك إلى حدّ يثير فيه مشاعرنا، وسانشو بانثا استطاع لما استماله بعض المزاحين المنحرفين وجعلوه يعتقد أنه تحول إلى حاكم جزيرة برأتاريا، أن يجعل القارئ يقف إلى جانبه لما تبدّى أنه أنبل وأذكى وأبرع من أيّ سياسي آخر. في نظرنا، هما خلقا «إنسانية» لم يستطع أيّ فيلسوف أن يصنعها، ولقد بينا لنا ماذا يعني أن يكون المرء إنساناً في هذا العالم الخطر والماجن. إذ نستطيع أن نتعرف إلى أنفسنا فيهما، لأن ذاك العالم هو ذات العالم الذي يحيط بنا في الوقت الحالي، ولأنّ حرّيتنا ووعينا وبقائنا هي في مهبّ الريح بالطريقة ذاتها كما كانت أزمان ثريانتس. ولم يكن دون کیخوته حقيقياً ومثيراً للمشاعر كما لما كان يستمع إلى ملامة تابعه الوفي، ولم يبد سانشو بانثا قط مقنعاً كما لما كان يعالج جروح سيده وكدماته، ويتظاهر أنه يصدّق ضروب جنونه كيما يجلب إليه السرور. والمساعدة التي يسديها كلّ منهما للآخر هي جدّ إنسانية حتّى لا تنتمي إلى أي عصر من العصور. فهي تبين لنا ضعف الإنسان الحديث على الرغم من التقدم وضمانة العلم والمعرفة المتراكمة في المكتبات: لأنّ ما ينقذه ذو صلة وثيقة بما يجعله في شك من أمره، ولأنّ ضعفه قريبة جداً في كلّ لحظة من عظمته. أو يوجد في الكوميديا البشرية في يومنا هذا موضوع آخر سواه، سواء أكان عند بيكيت، أو في لوحات بيكاسو أو في أفلام شارلي شابلن؟

في رواية ثربانتس موضوع آخر له طابع عائلي في نظرنا. وأنا أشير بذلك إلى طرد الموريسكيين^(١) الذي بلغ غايته عام ١٦٠٩، وربما مسّ التحضير له وتراً حساساً عند ثربانتس لحظة بدءاً فيها كتابة روايته. فقد كان ثربانتس وسط كتّاب ذلك العصر العسير الكاتب الوحيد الذي عبّر عن مشاعره وبيّن خلال مجرى الرواية ما الذي تعنيه للشعب الموريسكي دراما هذا الطرد بإبعادهم عن أرضهم مسقط رأسهم والمصاعب التي لاقاها هذا الشعب كي لا يتجمّع في بلدان ما كان ينتمي إليها. فثربانتس ينافح عن أقليّات عصره الإثنيّة والدينيّة التي تلاحقها السلطة والكنيسة بدءاً من عام ١٤٩٢: سواء أكان اليهود أم المدجنون^(٢) والمستعربون^(٣)، وأخيراً آخر الضحايا أولئك الأسبان ذوو الأصول الإسلاميّة الذين حوّلوا قسراً إلى المسيحية،

(١) تُطلق على المسلمين الذين ظلّوا تحت الحكم الإسباني بعد سقوط غرناطة. وكان شرط بقائهم أن يتصرّوا. لكنّ الشكوك ثارت حول حقيقة تصرّهم وانماجهم في المجتمع. لذلك اتّهموا بممارسة الإسلام سرّاً وبالاتصال بالأتراك. وقد جلبت عليهم هذه التّهمة ودخولهم في النزاعات التي نشبت بين الإسبان أنفسهم إشكالات ومضايقات كثيرة. واشتدّ التضييق عليهم أيام حكم فيليبي II وخليفته فيليبي III الذي أصدر قراراً بطردهم وبدأ العمل به عام ١٦٠٩. وموريسكو Morisco تعني مسيحياً حديثاً، أي مسلماً تنصّر منذ عهد قريب تمييزاً له عن Cristiano Viejo، أو مسيحيّ فحّ أو صريح لا يخالط نسبة مسلماً أو يهودي متنصّر. أمّا Moro فقد أطلقها الإسبان على المسلم وعلى العربي في آن واحد وتعني موريتانياً. وكانت موريتانيا تضمّ حسب التقسيمات الرومانية القديمة المغرب العربي نقطة انطلاق العرب. كان الموريسكيّون مزارعين نشيطين وعمالاً مهرة وحرفيّين جيّدين. وقد تركوا لنا أدباً باللغة القشتالية مكتوباً بالخطّ العربي. وهكذا طُوّبت صفحة هؤلاء القوم حتى ستينيات القرن الماضي: فكتّبت عنهم منذ ذلك الحين كتب كثيرة حتى صارت تشكل مكتبة يمكن أن نسميها: المكتبة الموريسكية. ورأي سربانتس هذا الذي يعرضه المؤلف، مُستأنفٌ كما تقول العرب. فقد كان له رأيّ آخر قبل الطرد، حينما قال عنهم إنهم غربانُ إسبانيا وسوسها، إلخ.. ويشاطره هذه النظرة المزدوجة إلى الموريسكيين معظمُ الإسبان في ذلك الوقت. فالموريسكيّ عدوٌّ نائم وخطرٌ كامن ما دام بين ظهرانيهم. لكنه صار دميماً ومهذباً و«جنّلماناً» لما صار بعيداً عنهم بعد الطرد — المترجم.

(٢) أو mudejar (مودخار)، وهم المسلمون الذين ظلّوا تحت حكم الإسبان أو الممالك الإسبانيّة قبل سقوط غرناطة، وكانت حقوقهم الدينيّة محفوظة لقاء دفع ضريبة. وقد أزيلت هذه الحقوق بعد سقوط غرناطة. وصاروا في فئة الموريسكيين.

(٣) وهم المسيحيون الذين كانوا يعيشون وسط مسلمي الأندلس. وكانت لهم لهجة خاصة، وطقس كنسي خاص.

والذين كانت الدولة تريد أن تجردهم من كل علامة مميزة: من عاداتهم وأزيائهم وحتى لغتهم العربية (^١) algarabia التي اشتقت منها الكلمة الفرنسية charabia. أو لا يمكن إيجاد صلة ما بين ذلك وبين مسائل راهنة تطرح حول «الاندماج»، أو الاستيعاب، ومؤشرات الهجرة الوافدة والحاجة إلى حصار الحدود؟ ولم تغب المواضيع الشرقية عن قصص الفروسية المشهورة التي يشكل الدون كيخوته قدحاً فيها. فالمرأة المسيحية الجميلة الأسيرة التي ينتزعها الفارس النبيل من يدي التركي القاسي كانت أحد المواضيع المطروحة في ذلك العصر، وما تزال كذلك اليوم بكلمات أخرى. فالثابت أن ثربانتس لم تجعله سنوات أسره في بلاد البربر وكذلك ذكرى مشاركته في حرب ليبانتو المجيدة، يتخذ موقفاً قاسياً حيال المسلمين. ومع ذلك نجد الرواية مزركشة بظهور الموريسكية بين حين وآخر، وهي فتاة ذات جمال بارع بشبابها الغربية مع الحجاب معبرة عن نوع من الإيروسية الحزينة التي لا يستطيع الفارس ولا القارئ أيضاً أن يتحاشى الوقوع في أسرها. والموريسكية تضيء برشاقتها وظرفها الطبيعي مغامرات بطلينا الفظة، وتذكرنا برقتها بما تدين به الحضارة الإسبانية، وامتداداً لها أوروبا كلها، للثقافة العربية ولمفهومها للجمال ولذائقتها الشعرية ورهافة مشاعرها. فلئن ظلت دولثنيا ديلتوبوسو بعيدة المنال، أو بالأحرى، قد تحولت أحياناً إلى راعية خنازير قذرة ومهملة، فإن الموريسكية تتحول من جهتها بتواضعها وبطولتها وحبها الحار، إلى مثال أعلى للمرأة كما فهمه ثربانتس. والأمر ذاته يحدث في قصة ريكوته صديق سانشو بانثا والمطروود مع ابنته آنا فيليكس التي تكافح بحرارة لتحرير حبيبها الواقع معها في أسر البربر. وإن ظهور الموريسكية في الرواية ربما يشير إلى سر من أسرار شباب ثربانتس أيام أسره الطويل، (اللهم إلا إذا كنا بصدد شبح أسير). لكنه يفصح بشكل خاص عن إنسانية

(١) كلمة فيها ازدراء وتعني الجلبة والضوضاء أيضاً. وقد كانت اللغة العربية، والزي (الحجاب للمرأة والعمامة للرجل)، والأغاني الليلية (ليلياس، أو ثمبرا، أي الزمر كما سماها الأسبان)، من النقاط الهامة التي كان الموريسكيون يفاوضون من أجل الحفاظ عليها إثر كل إشكال أو تمرد. وقد كان إلغاؤها عام ١٥٦٧ سبباً مباشراً في قيام موريسكيي وادي الحجارا في غرناطة عشية عيد الميلاد عام ١٥٦٨، باننفاضة كبرى دامت عامين. وقد رجّت هذه الثورة العرش والمجتمع الإسبانيين. وكان الخوف كبيراً من تدخل الأتراك لكنهم لم يفعلوا، بل احتلوا قبرص — المترجم.

جديدة كلَّ الجدة في الأدب تجعلنا نفكر في مغامرة الفيلسوف ميشيل ده مونتيني. وقد يقال في الوقت الحاضر بجد أكبر كثيراً: إنه يتحدث عن «الوضع البشري». ونحن بدورنا، ألا نعيش في عالم مغلق على الآخر، وقائم على الامتثالية وعلى مذاهب مستقرة وعلى كره للأجانب وعدم الثقة بكل ما يبدو لنا مجهولاً؟ فطرّد المهاجرين الوافدين وإعادة تجميعهم وإعادة تدويرهم إلى البحر، ونبذ العلامات المميزة لهم، أو نبذ تراثهم وأصولهم، وبناء الجدران حولهم ومعسكرات الترحيل ورفض المواطنة وحق التصويت لهم... كل ذلك نعرفه جيداً جداً لأنّه صار خبزنا اليومي. فالشعوب الغنية العمي مثل ميليشياتهم، ترفض أن ترى في طرقات المنفى الخاوية روحاً بشرية في هذا الآخر الذي ينتظر مختبئاً في معسكر محاط بأبراج المراقبة في مرفأ الجزيرة ومرسليها ودنكره. وإذا منح المهاجرون حق اللجوء فذلك كي لا يجلسوا في ضاحية ما بائسة حيث كلمة «مستقبل» تبدو لا معنى لها.

إن قراءة الدون كيخوته تجلب ذلك كله إلى الذاكرة مرة أخرى. فلربّ أنا فيليكس ما تنتظر (اليوم) في مكان ما تحت سقف من قماش وعلى حرف الطريق متزماً بثياب السفر، وروحها لا تقلّ جمالاً ولا عيناها أقلّ اضطراباً بسبب القلق والانتظار، عمّا لو كانت مسيحية أو موريكية، أو عمّا إن كانت تعيش في أيام ريكونته صديق سانشو الضائع. فأيّ فارس سيهرع اليوم إلى مد يد العون لها؟ أين هو سانشو الحلو الكريم الذي شعر بالاشمئزاز من أكاذيب المجتمع؟ أم أننا جميعاً أيتام في هذا العصر الذي يخلو من البراءة، ومن فارس كالفراس ذي الوجه الكئيب وخادمه الأمين؟ لقد كانت الدون كيخوته بلا ريب رواية هي أكثر الروايات تأثيراً في الأدب الغربي، فقد شكّلت مظهره النهائي. ويبدو الأمر مدهشاً إذا تنبّهنا إلى أننا لا نستطيع القول إن الدون كيخوته كان لها (ما قبل)، و(ما بعد). فرواية الفروسية التي غزت من قبل أوروبا النهضة حتى أدّت إلى إصدار قرار بمنعها، لم تكن بعد كل شيء سوى حمى عارضة. وإن قصصاً كهذه كانت بضحايتها وتكلفتها العاطفي على وجه خاص، رمزاً للكذب ولرياء ذلك العصر الفظ والذرائعي. فقد كان هرنان كورتس يذكر أماديس ده غولا، ويستذكر أعمال الفارس البطولية وحبّه الأثيري لأوريانا. لكنه هو ذاته من زرع الموت والحزن في إمبراطوريات العالم الجديد، وأغوى ما لنشيه malinche، وعذب كوا أهتموك Cuauhtemoc آخر ملوك المكسيك، كي لا يجبره على الإقرار بالمكان الذي خبّئت فيه كنوز المعابد، ثم

وضعه على الخازوق في الطريق إلى هندوراس مثيل ما يصنع بلصّ. وكذلك مساعده الوفيّ برنال ديثا ديل كاستيو يذكر أيضاً بطولة الفرسان الجوّالين، ويقارن الاستيلاء على المكسيك بالاستيلاء على القدس. لكن، كان عليه أن يظهر فرقاً في قسوة الواقع: فبعد الحصار سقطت عاصمة الأزتيك في أيدي الإسبان في ١٣ آب من عام ١٥٢١، وكان يتناثر على ميدان المعركة أكثر من مائتين وستين ألف قتيل بين رجل وامرأة وطفل. كان القتلى كثيرين حتّى دعت الحاجة إلى أشهر كي لا تحفر خنادق لدفهم. ولن تجد قصة من قصص الفروسية تتحمّل عبء مجزرة كهذه. وقد كان هذا الجنس الأدبي محكوماً عليه حتى قبل أن يطلق عليه ثرانتس رصاصه الرحمة. وإذا استثنينا بعض الإشارات التافهة، فمن كان يهتمّ حينئذ بقصص متحلقة، متكلّفة وغير قابلة للتصديق وكاذبة؟ أما الكيخوته، فنجد فيها كل ما يشكل رواية القرون القادمة: أي السخرية والغرابة والصعلكة وتصوير العادات، وعمق التحليل والواقع الاجتماعي والحوارات الشعبية وازدواجية الأبطال (قلق دون كيخوته ووحدته، وضعف ثقته، وميله إلى الغضب، وقمعه المستمرّ لرغباته، ووسواس الحماية الأميّة)، وجلافة الفلاحين وسخف المدنيين، والظلم المحيق بالنساء، وتمردّ الخدم على السادة، ونظرة السادة غير المتسامحة إلى خدمهم، والزندقة، والإخفاق في الزواج، ونزوات المجتمع الأبوي، السخيفة. وهناك في الوقت ذاته، المثل الأعلى، وممارسة شعر الغزل على الطريقة العربية، والحفلات الموسيقية الليلية، والرومانسية والتخيلية كلها مقدمة نحو الواقعية الشاملة.

وإذا ما عدتُ بذاكرتي إلى أيام طفولتي، إلى ذلك العصر الأثير الذي اكتشفت أثناءه رواية ثرانتس في المكتبة العائلية، أراني أطوف بنظرتي من رسم إلى آخر وأنا أقرأ قصّة مغامرة البطلين، وكأنني قد أنهيت لتويّ كتابتها، وكأنني أترجم واقعاً كان بإمكانني أن ألمحه بمجرد أن أطلّ من النافذة. وما كان لديّ شك في ذلك. ولم يهين لي أيّ كتاب - ربما باستثناء لاثريو ده تورمس^(١) lazarillo de Tormès، هذه اللذة

(١) كتاب غُفّل ظهر في إسبانيا في أواسط القرن السادس عشر. يروي فيه الفتى لاثريو بخبث محبّب وظرف ما رآه وسمعه وخبره إبان تنقّله في سبيل العيش من بيت إلى بيت ومن مكان إلى مكان ومن بيئة إلى أخرى. وكان فاتحة ما سُمّي في إسبانيا أدب البيكارسك، أو الصعلكة بالمعنى الشعبي، وقد نسج على منواله كبار كتّاب إسبانيا ومن بينهم ثرانتس نفسه - المترجم

الغامضة في الأدب (لا سيما في نظر طفل ما كان يعرف بعد معنى الكلمة) لكونه قريباً منا جداً، وهو في آن واحد غير ممكن بشكل ساحر. تحدثت منذ قليل عن الواقعية الشاملة. وهي كلمة كبيرة بلا ريب حتى تحدّد شيئاً جدّ بسيط، لأنه في هذه الصفحات، ابتكرت بسهولة تشيّر العجب فكرة الفنّ الروائي، ولا أشير بذلك إلى دقّة تتدرّب بها النفس على ممارسة الحقيقة بحرف كبير. فالحضارة الإغريقية، وهي فلسفية بطبيعتها، عاشت حقاً من غير أن تنتج روايات، وكان العالم العربي يؤثّر فنّ الشعر دائماً. أمّا ما أكّده ثريانتس فهو إرادة امرئ في مجتمع إسبانيا القرن ١٧، المتناقض، في أن يتحدث عن الحياة ويعلن الحرب على الامتثالية، وينتقد نقداً شديداً معاصريه مستخدماً القلم السلاح الوحيد الذي كان يمتلكه.

وإذا ما اكتشف القارئ في يومنا هذا الدون كيخوته (سواء أكان في طبعة جميلة مزدانة برسوم كما اكتشفته أنا، أم ببساطة، في كتاب جيب قديم ملوّن وحوافه مثنيّة لكثرة الاستعمال)، فلا يمكن أن يلتبس عليه الأمر: إذ سيجد هنا ثريانتس في شبابه المتقدّم والمدمّش؛ بل حتى لو صدف له أن فتح هذا الكتاب في عمر ينظر فيه الإنسان دائماً إلى الأمام من غير أن يتأثر بالشهرة أو الثقافة.

وهذا هو بلا شك، سرّ شعبيّة هذا العمل القديم العائد إلى أربعمئة عام خلت. فثريانتس ينتمي إلى نوع من الكتاب لم ينضجوا في ظل مكتب أو في رغد برج عاجي، محبّب. كتاب يحصلون على معاشات ويحاطون بالتكريم. إنه ينتمي إلى هذا العرق من المفكرين المغامرين الذين قيّض لهم أن يحتكوا بالعالم، والذين عرفوا الحاجة والخطر ومعركة العيش كلّ يوم بيوم. وقد يفكر المرء في رابليه الذي كان طبيباً، وفي ديفو أو سويت اللذين كانا تاجرين، أو في موليير الذي كان ممثلاً، أو في رجال أقرب إلينا مثل رامبو أو كونراد، أو كيرواك الذين نسجوا بخيط حيواتهم نسج أعمالهم من غير قدرة على الوصول إلى حلّ لغزها.

بدأ ثريانتس كتابة الدون كيخوته وقد كان أتمّ خمسين عاماً مضت من عمره، إثر حياة من التجارب والاحتياال للرزق. ولا ريب أن الشبيبة الحالية يمكن لها أن تتعرف إلى نفسها في هذه الكتابة حيث تسطع قوّة الحقيقة، وحيث يمكننا أن نرى في كلّ خطوة علامات الضربات المتلقاة، والآمال والإهانات، وحيث تنعكس المعرفة البشرية، وحيث يعتقد المرء أنه يسمع وراء كل تبادل حرارة اللقاء

والعواطف والمغامرات والضحك والانفعال. فإذا كنا نستطيع أن نشاطر أثناء القراءة دون كيخوته مشاعره، وإذا كنا عانينا الخوف والاضطراب والجوع وحتى الشعور بضرب العصي، فذلك أن مؤلفه عرف ذلك كله في الحرب وفي السجن وحتى في العبودية، ولا يفوتنا صدق كهذا الصدق. لكن مجرد اختبار ما عشناه، لا يكفي لكتابة رواية كهذه الرواية. وإن أحد أخطاء عصرنا هو الإيمان بأن التميز في الحياة كاف من أجل الكتابة. هذي هي الأكذوبة الكبرى لما نسميه أدباً واقعياً، أدباً ربما يكون أنسب نعت له: الاكتفاء الذاتي. أما قراءة دون كيخوته فتعلمنا عكس ذلك؛ إذ إن ثربانتس لما أبدع الرواية الحديثة جعل من حياته مادة أولية لعمله، لكنه عدل في آن واحد في سيرته^(١) كي لا تخدم خياله. ولو لم يكن دون كيخوته وسانشو بانثا وتيريسا ودولثنيا شيئاً آخر غير صور سريعة أخذت في طرق قشتالة القديمة، ما كان للرواية أن تقدم لنا غير سلسلة من جوانب الحياة الشعبية، والقوادة، والتسكع، كما جاء في رسوم كايو Jacques Callot. فمن يقرأ هذه الآن في عصرنا الذي ترجه حروب الجبهات والهموم الاقتصادية؟ على العكس منها، نجد حضور دون كيخوته حضوراً دائماً، وإننا نشعر أن كل ما تقصه الرواية يعيننا وإن أربعمئة عام انقضت على إنشائها لم تخف من أهميتها، ولم تجعل إبداعاً واحداً من إبداعاتها مفوتاً. وذلك لأننا نبحر في العالم ذاته حيث تسود الحروب والمظالم والأكاذيب، وأنا نستطيع أن نضحك من أنفسنا وأن نسخط كما في أيام ثربانتس. وإننا نتعرف في خطب السياسيين إلى أشكال الرياء ذاتها وإلى سعة المعرفة عينها. وإننا نلمح لدى معاصرنا الذين يسمون أنفسهم مفكرين الغرور الفارغ واللامبالاة نفسها بمصائب الآخرين. فعلى بعد خطوتين من قصورنا ونصبتنا التذكارية يعيش شعب من قوادين جدد وتائهين ومتسللين وأشباه عبيد ينتظرون عبثاً مجيء محرر لهم، ذاك المحرر الذي قال عنه سانشو بانثا: «يطعم العطشان ويسقي الجوعان»، ذاك الذي قد يفتح باب الحرية عن طريق الضحك.

لقد نقل ثربانتس حتى يومنا شباباً لا يلين عبر صوت دون كيخوته الخالد، يلطف منه إحساس سانشو المشترك بين الناس. ولست أشك في أنه سيبقى إلى ما بعد عصرنا الصعب، لأن هذا الشباب يقوم على الحق والصدق وعلى مزية وحدها

(١) في الأصل حياته.

الروايةُ تستطيع أن تُخرجها إلى النور. وهي وعي المرء بذاته. لقد بحث عنها مؤلفون آخرون في العقل وفي العاطفة أو التصوف، من أمثال مونتيني ولويس لابه L. Labé وجون دون John Donne. لكن ميغيل ده ثربانتس وحده استطاع أن يبلغها بالإضحاك.

هنا تكمن بلا ريب الظرافة الطليقة إلى حدّ ما، تلك التي تجعل من دون كيخوته أسطورة ذات شباب خالد. لكننا نلمح من وراء فيض المغامرات المنتظم والبسيط، المغامرات التي يقوم بها بطلانا، قوّة الشغل، وثبات الكاتب وإصراره وحماسه حماساً لا تفتقر.. لما عزم ثربانتس في اللحظة الأخيرة، بعد وفاة شريكه القديم، على أن يكتب كلمة النهاية في الجزء الثاني من الدون كيخوته، وضع على فم ريشته أو قلمه هذه الجملة التي يمكن أن تكون شعاراً جيّداً جداً للروائي: «من أجلي وحدي خلُق الدون كيخوته. وأنا من أجله خلقت». ■